

الفصل الثالث

منهج الإمام محمد عبده الإصلاحي لقضايا المرأة ودوافعه

كانت نقطة البداية فى المنهج الإصلاحي للإمام محمد عبده فى التماس العلاج لوهن المجتمع الفكرى هى التحرير الكامل لركنى المجتمع الرجل والمرأة معا لكونهما لبنة المجتمع ، بينما كانت أوضاع المرأة تقتضى الاهتمام بها أكثر لسوء تلك الأوضاع أكثر مما كانت عليه أوضاع الرجل.

ظهرت دعوة الإمام محمد عبده الإصلاحية فى زمن التغيرات السياسية والاجتماعية للمجتمع المصرى خاصة والإسلامى عامة، إذ شهد زمنه تطورات متتالية وأحداثا متسارعة سواء سياسية أو اجتماعية أو فكرية غيرت النمط السلوكى والفكرى لأفراد المجتمع ، حيث اتجه المجتمع نحو التغير لمواكبة الحضارة الغربية من خلال نخبة من المثقفين الذين تم بعثهم للدراسة فى أوروبا ثم العودة لبدء نهضة فكرية واجتماعية جديدة كان منهم رفاة الطهطاوى الذى أكد على أهمية تعليم البنات وأثر ذلك فى تطوير المجتمع وتقدمه.

وكان المنهج الذى اتبعه محمد عبده فى تحرير المرأة المصرية والمسلمة هو عدم التقليد الأعمى للغرب، فحذر الإمام محمد عبده من بداية مسيرته الإصلاحية من تقليد الغرب والأخذ عنهم دون تمحيص أو تدقيق لما يؤخذ عنهم، فكتب مقالات تحت عنوان «خطأ العقلاء»⁽¹⁾، يحذر فيها

من الوقوع فى التقليد الأعمى دون تبصر أو روية، ويحث على التمسك بالأخلاق والعادات الإسلامية مع مراعاة التطور الذى طرأ على عادات المسلمين، يقول الإمام منكرًا على من اقتبس من الغرب عاداتهم وأفكارهم التى لا تناسب المسلمين ظنا منهم أنها السبيل للخلاص من الواقع الذى يعيشه المسلمون وابتعادهم: (وأسفاه! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه، أما الدين نفسه فقد انقلب فى عقل المسلم وصفه، وتغيرت فى مداركه طبعه، وتبدلت فى فهمه حقيقته، وانطمست فى نظره طريقته وحق فيه قول على كرم الله وجهه: (إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس القرو مقلوباً)... وقد دخل على المسلم فى دينه ما ليس منه وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر، ما لا يتصل بأصلها، بل يهدم قواعدها. ويأتى على أسسها)^(٣).

كما كان منهج الإمام محمد عبده فى حديثه عن المرأة المسلمة بالحديث الضمنى لمنهجه الإصلاحى وليس بالدعوى الصريحة سواء فى مقال أو خطبة، ولم يخرج حديثه عن المرأة عن الناحية الشرعية والاجتماعية نظرا لما يتطلبه الحديث عن إصلاح المجتمع، فالمرأة نصف المجتمع فلا بد من تعليمها ووضع القوانين التى تصون كرامتها الإنسانية وحقوقها الاجتماعية سواء فى بيتها أو مجتمعها. لذلك لم يكتب عن المرأة وحدها أو يشير من خلال كتاباته إلى قضية المرأة مستقلة عن المنهج الإصلاحى باعتبارها قضية منفردة بذاتها. بل كان تناوله لقضايا المرأة جزءاً من منظومته الإصلاحية للمجتمع بشقيه الرجل والمرأة.

كذلك انتهج الإمام محمد عبده منهج الوسطية فى حديثه عن حقوق

المرأة فلم تكن دعوى الإمام محمد عبده تجاه قضية المرأة دعوة غربية الاتجاه بل كانت دعوة متوازنة إلى مواكبة الغرب في حضارتهم مع الحفاظ على قواعد الشريعة الإسلامية وما فرضته على المرأة من أحكام لا بد من تطبيقها، ولذا تطلق على دعوة الإمام بالوسطية فلا مقاطعة للحضارة الغربية، كما أن دعوته ليست دعوة إلى تغريب المرأة المسلمة عن دينها ومجتمعها بل نأخذ من الحضارة ما لا يضر بديننا ويتناسب مع شريعتنا السمحة.

ورغم هذه الدعوى الوسطية للإمام محمد عبده فقد حظى بنصيب وافر من التهم⁽³⁾، في دعوته للإصلاح، ونسبت إليه جذور فكرة تحرير المرأة ذات الاتجاه التغريبي، واتهم بأنه أراد لها الخروج عند دينها والافتداء بالغرب متخذاً من الأميرة نازلى هانم التى كانت تعقد صالونا للرجال تخالطهم فى مجلسهم وتشاركهم حواراتهم نظراً لتمتعها بالعلم والفتنة نموذجاً للمرأة المصرية التى عمل الإمام على استنساخها فى المجتمع المسلم⁽⁴⁾.

ومن الأسباب التى دفعت الإمام محمد عبده للاهتمام بقضايا المرأة الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية فكانت حافزاً لتبنى الإمام الفكر الإسلامى التجديدى الذى يركز على أصول الشريعة الإسلامية الثابتة مع الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد العقلى لإيجاد حل لما حدث فى الحياة الاجتماعية فى فكرها وأنظمتها تتبع بالضرورة الخلل الفكرى الذى يعانى منه المجتمع المسلم فى ذلك الوقت، وليكمل ما بدأه رائد من رواد الفكر فى ذلك الوقت رفاة الطهطاوى الذى يمثل مرحلة بداية

تطور الفكر الثقافى المصرى عامة، كذلك يمثل النواة الأولى للدعوة إلى تغيير أوضاع المرأة المصرية والمسلمة بالدعوة إلى تعليمها وتهئية فرص العمل لها أسوة بالرجل.

فمع جمود الفكر وسيطرة الجهل، ساد التقليد والتعقيد معا على أذهان المسلمين فأدى إلى فهم خاطئ للعقيدة الإسلامية وأحكامها، وحظيت المرأة المسلمة بنصيب الأسد من هذا التخلف والجمود، وفقدت كثيرا مما شرع الإسلام لها من مكانة وحقوق تميزت بها عن باقى نساء العالم منذ فجر الإسلام إلى وقتنا الحاضر، وعاد النفور والتذمر والضيق بولادة الأنثى إلى الظهور فى المجتمع.

إذ إن أى تدهور اقتصادى يتبعه فساد اجتماعى وأخلاقى، لذلك فالتحكم الاقتصادى يتبعه ضمنا التحكم الاجتماعى وبالتالي فإن انفراد الرجل بتأمين المورد الاقتصادى للأسرة يؤدى إلى إطلاق سلطته ورأيه فى الأسرة دون تحاور أو تشاور مع أفرادها، فالمرأة بالنسبة له مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة يقتصر وجودها على خدمة الرجل الذى يقع عليه العبء الاقتصادى بالإضافة إلى الحذر واليقظة المطلوبة منه لرعاية ومراقبة نساء الأسرة والحيلولة دون فسادهن^(٥).

وبذلك تعود الجاهلية الأولى للانتشار فى المجتمع العربى والإسلامى وتحرم المرأة من حق التربية السليمة والتعليم الصحيح بسبب الفهم الخاطئ لشرائع الدين وتعاليمه فكان لا بد من صيحة حق توقظ عقول المسلمين الغافلة عن الدين الصحيح وتميز بين ما هو من الدين وما أدخل عليه من العادات الخاطئة التى شابت السلوك الإسلامى وضللت

العقول عن الطريق المستقيم الذى رسمه الإسلام لأتباعه رجالا ونساء، وقد شارك الإمام محمد عبده فى الصيحة التى أيقظت المسلمين من غفلتهم قرونا عديدة^(٦).

قد شغلت قضية المرأة ووضعها أذهان من يمكن اعتبارهم النخبة الثقافية فى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر. وحتى لا يختلط الأمر بصدها يجب التأكيد منذ البداية على أن أقصى ما كانت تطالب به هذه النخبة بوجه عام هو التخلص من بعض الأفكار التى أحاطت بحياة المرأة ودورها فى المجتمع. فقد تركزت الدعوة حول إقرار حق التعليم لها (الابتدائى فقط) كما جاء فى كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين^(٧)، وفى الكشف عن الوجه واليدين وتطوير الحجاب دون إلغائه، واستنكار تحكم الرجل فى أحوال المرأة الشخصية. وموقف الإمام من هذه المسألة أنه اتفق مع الذين تصدوا لها على النحو السابق الإشارة إليه، وأسهم بدور كبير فى التأكيد على هذه المعانى من خلال كتاباته عن الزواج والطلاق والحجاب وتعليم البنات، ومن خلال مشاركته فى إعداد كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩م^(٨).

ومن المفكرين الذى عقدت لهم أعمالهم الفكرية وجهودهم العملية لواء القيادات لمسيرة النهضة والبعث والإحياء التى بدأتها شعوب الشرق فى القرن التاسع عشر، فكانوا نقطة البدء الأولى والحقيقية والعلاقة فى ذلك التجديد الذى ميز حياتنا الحديثة والمعاصرة عن تلك التى عاشها الشرق فى ظل حكم المماليك والأتراك العثمانيين، هو رفاة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣م) الذى كان نافذة الشرق على الغرب،

وحدد الصلات الفكرية بينهما، ولم يقف أمام حضارة الغرب العملاقة موقف المأخوذ الناقل المقلد، بل موقف من يختار، ويمزج مختاراته بتراث الشرق وواقعه. فسلط الأضواء على الديمقراطية البورجوازية، والدستور، والمؤسسات النيابية، وتقبيد الحكومات بالقانون، وأبرز دور الجماهير (العامة) فى الثورة على الملوك المستبدين^(٩).

كما أعطى واحدا من أهم أعماله الفكرية لقضية المرأة الشرقية، فطالب لها بالعلم، والعمل، وأن تلحق بركب الحياة وتواكب الرجل فى طرق باب المستقبل. وقدم فكر الغرب فى هذا الميدان موصولا بتراث الشرق النقى المتقدم، ففتح باب الحركة ولوح بالأمل أمام نصف المجتمعات الشرقية التى كانت مهملة تماما ومعطلة بالكلية فى ذلك الحين^(١٠).

بينما مثل الاتجاه التجديدى التغريبي - ويعد أحد تلاميذ الإمام محمد عبده - قاسم أمين الذى أخذ على عاتقه قضية تحرير المرأة، ورأى أن سبيل الإصلاح إنما يكون بإصلاح المرأة وأحوالها الفكرية والاجتماعية، فقد نظر قاسم أمين فى العيوب والآفات التى يزرع المجتمع المصرى تحت عبئها، فوجد أن مرجع ذلك إلى أن نصف الأمة قد انتابه الشلل التام فى الحياة الاجتماعية، شلل سببه الجهل والتأخر اللذان قيدت بهما المرأة عندنا، وحرص قاسم أمين على أن يبين أن الإسلام - خلافا للوهم الشائع - لم ينظر للمرأة نظرة مهانة أو زراية، بل رفع من قدرها وأعلى من شأنها، وإذا كانت المرأة قد عانت شيئا من المظالم فى المجتمع الإسلامى، فليس الإسلام فى بساطته الأولى بمسئول عن ذلك، وإنما المسلمون فى العهود الأخيرة هم وحدهم المسئولون^(١١).

وأخذ الأستاذ الإمام محمد عبده عن الأفغانى منهج الإصلاح الدينى كسبيل لتجديد حياة الشرق والشرقيين ، وقدم بهذا المنهج بناء فكريا مكتمل القسما ، وواصل رسالة رفاة الطهطاوى فى تقدير المرأة وضرورة تحريرها بالعلم ، وتخليصها من القيود التى قيدت بها خطأ باسم الدين . وتبنى الفكر الاجتماعى المتقدم ، عندما انطلق من منطق العصر واحتياجاته إلى النظر فى تراث الإسلام الاجتماعى والاقتصادى بعقل واع وأفق مستنير^(١٢) .

بينما كان موقف الشيخ محمد رشيد رضا من قضية المرأة تكملة لما بدأه أستاذه الإمام محمد عبده إلا أن الإمام كان مكثفيا بتفسير الآيات القرآنية التى تحدثت عن النساء عامة ومن خلالها أبرز أفكاره الإصلاحية ، بينما الشيخ محمد رشيد رضا وضحاها فى كتاباته عن المرأة ، ودافع عما كتبه قاسم أمين فى كتابه تحرير المرأة معتذرا عن سوء فهم المسلمين لما قصده قاسم أمين فى حديثه عن الحجاب والاختلاط ، بينما محمد رشيد رضا ابتعد عن الخوض فيما خاض فيه قاسم أمين^(١٣) .



هوامش الفصل

(١) كتبها الإمام محمد عبده فى الوقائع المصرية على التوالى العدد ١٠٧٩ - ٤ أبريل ١٨٨١م، ثم العدد ١٠٨٢ - ٧ أبريل ثم العدد ١٠٩٢م - ١٩ أبريل من العام نفسه.

(٢) محمد عبده - الأعمال الكاملة - تحقيق: د. محمد عمارة - ج٣ ص٣٤٣.

(٣) انظر: د. محمد محمد حسنين - الإسلام والحضارة الغربية - مكة المكرمة - ط ٩ - ١٩٩٣م.

(٤) د. السيد أحمد فرج - المؤامرة على المرأة المسلمة تاريخ ووثائق - دار الوفاء للطباعة - المنصورة - ط ١ - ١٩٨٥م - ص ٥٢، وأيضا: د. إجلال خليفة - الحركة النسائية الحديثة. ص ٢٧: ٣٠.

(٥) د. محروس سيد مرسى - الفكر الإسلامى وتربية المرأة فى القرن التاسع عشر - دار المعارف (بدون تاريخ) - ص ١٠٠.

(٦) فرج بن رمضان - قضية المرأة فى فكر النهضة - دار الحوار - سوريا - ط ٢ - ١٩٨٩م - ص ١٨.

(٧) يقول د. محمد عمارة: والرأى الذى أوْمَن به هو أن هذا الكتاب جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين،

وأن فى هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده،
وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب
صياغة نهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى
أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين. وقد استدل د. عمارة
على رأيه السابق بعدة أدلة منها:

(أ) أن الأبحاث الدينية التى وردت فى كتاب تحرير المرأة متطابقة
فى الأفكار مع ما نشره الإمام فى الوقائع المصرية فى بداية
عمله السياسى ١٨٨١م، والقارئ لمقالات الإمام فى قضية تعدد
الزوجات يرى مدى التطابق فى الفكر والأسلوب.

(ب) موقف الإمام من الكتاب بعد صدوره، فقد أيدته ودافع عنه بطريق
غير مباشر ...

(ج) كثرة الاقتباسات المأخوذة من أمهات الكتب فى الفقه الإسلامى
والتى يرى د. محمد عمارة أن ثقافة قاسم أمين لم تبلغ حتى
مجرد معرفة أسمائها فضلا عن الاستشهاد بها.. انظر: محمد
عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق د. محمد
عمارة - ج ١ - ص ٢٦١ : ٢٧١.

(٨) عبد العاطى محمد أحمد - الفكر السياسى للإمام محمد عبده -
الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٨م - ص ١٧٧.

(٩) رفاعة الطهطاوى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - انظر:
الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى - تحقيق: د. محمد عمارة -
طبعة بيروت - ١٩٧٣م.

(١٠) زفاعة الطهطاوى المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين - انظر فى ج ٢ من المصدر السابق - وانظر: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى تحقيق: د. محمد عمارة - ج ١ - ص ٢٠١-٢٢١، ١١-٢٢١ - (١١) د. عاطف العراقى الشيخ الإمام محمد عبده والتنوير - قرن من الزمان على وفاته - دار الرشاد - القاهرة - ط ١ - ٢٠٠٧ م - ص ٢٩٤.

(١٢) محمد عبده - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - تحقيق: د. محمد عمارة - ج ١ - فى تفسير القرآن - ص ١٤. (١٣) د. أحمد فهد بركات الشوابكة - محمد رشيد رضا و دوره فى الحياة الفكرية و السياسية - دار عمار للنشر والتوزيع - الأردن - ط ١ - ١٩٨٩ م - ص ١٤٩ وما بعدها.

□□□